الفصل الرابع

علم النفس:
مفاهيم وتعريفات

الفصل الرابع

علم النفس: مفاهيم وتعريفات

مما لا شك فيه أن تعريف أي علم من العلوم، وبخاصة إذا كان من العلوم الإنسانية شأن علم النفس، يعتبر شائكاً إلى حدٍ بعيد بحيث يكاد يستحيل على القائم به أن ينجح في وضع التعريف المثالي، والذي يحقق به الخاصية الشهيرة للتعريف الدقيق من حيث كونه جامعاً مانعاً. ذلك أن الحدود الفاصلة بين علم وغيره في كثير من الحالات تكون حدوداً هلامية يكتنفها الكثير من الغموض، ويشوبها الكثير من الخلط، حتى أنه نشأت بعض العلوم الحديثة نسبياً تقع بين علم وآخر آخذة من هذا ومتداخلة مع ذاك.

فهناك على سبيل المثال: علم النفس الاجتماعي الذي يأخذ من علم النفس ويتداخل مع علم الاجتماع، وعلم النفس الفسيولوجي الذي يأخذ من الفسيولوجيا(*) ويتداخل مع علم النفس، وغير ذلك الكثير.

(*) الفسيولوجيا: أحد فروع علم البيولوجي، ويهتم بدراسة ظاهرة الحياة في الكائنات الحية بصورة عامة، أي دراسة الوظائف الحيوية لها، ويقسم إلى فسيولوجيا الحيوان، وفسيولوجيا الحيوان لكن المبادئ واحدة في القسمين.

إذن ما هو علم النفس؟

علم النفس هو العلم الذي يدرس السلوك الإنساني بأوسع معني لمصطلح السلوك، بحيث يشمل نشاط الإنسان في تفاعله مع بيئته تعديلاً لها حتى تصبح أكثر ملاءمة له، أو تكيفه ذاتياً معها حتى يحقق لنفسه أكبر قدر من التوافق.

والسلوك بهذا المعني الشامل الواسع يتضمن ما هو ظاهر يمكن للآخر إدراكه كتناول الطعام، والشراب، والمشي. كما يتضمن ما هو غير مدرك إلا من صاحبه مثل التفكير الصامت والتخيل والتذكر والأوهام والمخاوف والآمال، وما إلى ذلك من انفعالات قد لا يستطيع أن يدركها حتى القائم بها، ذلك مثل ما يعتمل داخل النفس من دوافع ورغبات وآمال ومخاوف لا يشعر بها صاحبها، حتى وإن شعر بها فهو لا يعرف كنهها الحقيقي لأنها لا شعورية في أساسها مثل سلوك النائم في تخيلات أحلامه وما يراه فيها، بل وحركته الفعلية أثناءها كالكلام بصوت مسموع، أو المشي أثناء النوم، ومثل أيضاً أعراض الأمراض النفسية ومظاهرها عموماً.

كما يتضمن السلوك بالمثل ما تقوم به أجهزته الجسمية من نشاطات قد نستطيع الإحساس بها كالتنفس وطرفة العين، وقد لا نستطيع أن نحسها حتى لو قصدنا إلى ذلك مثل إفرازات المعدة وإفرازات السكر في الدم..

ومن الجدير بالذكر أن علم النفس كثيراً ما يلجأ إلى دراسة سلوك الحيوان مما يبدو مناقضاً لتعريفنا الذي عرضناه، حيث دراستنا لسلوك الإنسان، لكننا ينبغي أن نذكر أن علم النفس عندما يدرس سلوك الحيوان. على الأقل حتى يومنا هذا – إنما يكون هادفاً أساساً منه إلى إلقاء مزيد من الضوء وتحقيق مزيد من المعرفة بسلوك الإنسان؟ ذلك أن العالم النفسي كثيراً ما يري ضرورة إجراء تجارب لفهم سلوك الإنسان وتفسيره، لكنه يعجز عن ذلك أو تعترضه عقبات تحول دون غرضه فيستبدل التجريب على الحيوان بالتدريب على الإنسان. (طه، 1979: ص ص 11–13)

ويمثل ذلك نقطة اختلاف لا مجال للمقارنة بين مصدر العلم في القرآن الكريم،

وبين مصدره في علم النفس، فالأول من عند الله سبحانه وتعالي خالق الإنسان والعالِم بطبيعته، فهو علم إلهي لا يحتاج إلى تجريب للوصول إلى حقائق، أما علم النفس لأنه علم دنيوي يكتشفه البشر يقوم على التجربة والرؤية والاستنباط والخروج بنتائج قد تكون صحيحة وقد تكون خاطئة.

أما صفات الإنسان في القرآن الكريم هي صفات لا تحتمل الخطأ. والجدير بالذكر هنا أن الاختلاف لا يعني عدم توافق علم النفس مع ما جاء به القرآن الكريم من تفسيرات، فالعلم الدنيوي الموجود أصلاً في كتاب الله عز وجل يحتاج إلى الاكتشاف عن طريق البحث، والمشاهدة، والتحليل، وإجراء التجارب حتى نصل في النهاية إلى دليل يضاف إلى كم الأدلة الكونية التي تثبت أن القرآن حق، وأنه أُنزل من عند الله، وليس كما يدعي أعداءه.

ونضرب لذلك مثلاً بتجربة (تريون Tryon) التي قام فيها بدراسة توارث القدرة على تعلم اجتياز المتاهة في ثمانية عشر جيلاً من الفئران البيض فكان يعرض الفئران لاختبار يقيس به هذه القدرة لدي كل منها.

ثم يزاوج بين أفضل أبناء جيل الآباء الممتازين في قدرتهم على تعلم اجتياز المتاهة تزاوجاً انتقائياً في كل جيل من هذه الأجيال الثمانية عشرة، وفي مقابل هؤلاء كان يزاوج بين أقل أبناء جيل الضعفاء في قدرتهم على تعلم اجتياز المتاهة تزاوجاً انتقائياً بالمثل في تلك الأجيال، وهكذا كانت ذكور الفئران الممتازة في القدرة على تعلم اجتياز المتاهة تتزاوج مع إناث الفئران الممتازة، كما كانت ذكور الفئران الضعيفة في هذه القدرة تتزاوج مع إناث الفئران الضعيفة. وقد كان "تريون" يضبط تلك الظروف البيئية التي كانت تعيش فيها كل من مجموعتي الممتازين والضعاف مثل مكان الإقامة والتغذية والتهوية والحرارة والرطوبة - بحيث يحقق للمجموعتين تعادل البيئة - وقد تبين لـ"تريون" من تجربته هذه أن القدرة على تعلم اجتياز المتاهة تتأثر بعامل الوراثة بشكل واضح، وليست هذه القدرة يمكن أن تقابل ما يعرف بالذكاء عند الإنسان. طه (1979: ص ص 14، 15)

والسلوك الإنساني كما هو ملاحظ ظاهرة معقدة لها دوافع متعددة. شعورية، ولا شعورية، وشبه شعورية. كما تتدخل فيها عوامل نفسية، ومادية، وعقلية، وجسمية، واجتماعية. ولكي نبرهن على ما نقول فإن نظرة إلى طالب يؤدي الامتحان في مادة الرياضة على سبيل المثال، نجد أن هناك عوامل كثيرة تؤثر في مستوي تحصيله، ومنها:

- مستوي طموحه.
- دوافعه ورغباته في النجاح.
- مستوي ذكائه.
- حبه أو ميله أو عدم ميله لهذه المادة العلمية.
- الحالة النفسية والمزاجية للطالب أثناء أدائه الامتحان.
- البيئة المادية حوله: الضوضاء، الإضاءة، الرطوبة، الحرارة، التهوية.
- نضج الطالب الانفعالي والجسمي.
- البيئة الاجتماعية حول الطالب: علاقاته مع زملائه الذين يؤدون الامتحان معه، والملاحظين عليه.

مما سبق يتضح لنا أن علم النفس يستند إلى الملاحظة العلمية، والتجريب مستخدماً في ذلك أساليب القياس الكمي(*) الدقيقة، كالاختبارات النفسية الموضوعية المقننة والسيكوفيزيقية والإحصاء، وهذا يرجع تاريخه إلى عام 1879، ذلك الذي أسس فيه العالم الفسيولوجي "وليام فونت" William Wundt" أول معمل لعلم النفس التجريبي" Experimental Psychology" بجامعة ليسبزج بألمانيا، والذي كان مزوداً بأجهزة خاصة وأدوات يمكن بها إجراء تجارب على كيفية التعلم والتذكر والانتباه والتفكير، وعلى الحواس من إبصار وسمع ولمس كذلك قياس سرعة

(*) القياس الكمي: يتضمن جمع معلومات رقمية, مثل الإحصاءات حول موضوع معين، وعلى الرغم من أهمية القياس الكمي إلا انه لا يكفي فهو يقدم منظورا ذا بعد واحد.

التنفس والنبض وذلك أثناء الانفعال وغيره. وكان هذا أمراً يصعب تصديقه في ذلك الوقت. إذ كان المعتقد وقتها أن الشعور والعقل (النفس) أمور لا يمكن إخضاعها للقياس.

أما علم النفس الذي يجول بخاطر العامة فقد بدأ مع التفكير البدائي، وكان الخيال هو المنبع الذي يعتمد عليه. وعلم النفس هذا عاش منذ ذلك التاريخ البعيد، وما زال يعيش بيننا يحاول به الفرد العادي أن يفهم نفسه وغيره. فالإنسان البدائي حاول تفسير سلوكه فلم يجد أمامه إلا أن يفترض أن هناك كائناً آخر خفياً داخله.

وأساطير (هوميروس) الإغريقية تحدثنا عن "نفس" داخل الظواهر الطبيعية تحركها، وتتحكم فيها. على أن علم النفس ظل فترة طويلة فرعاً من الفلسفة كغيره من العلوم الأخرى.

حتى أن المدارس الإغريقية الفلسفية اهتمت بالنفس واعتبرتها مصدر الحركة والحياة والعمليات العقلية، وإن كان هناك خلط كبير بين الروح والنفس والعقل إلا أنهم كانوا يرددون أن الروح مادة كالهواء لكنها بلغت حداً كبيراً من الرقة والشفوف (الشفافية). (عوض، 1980:ص ص 1-3)

وهذا ما أبطله القرآن الكريم والذي تحدث فيه المولي عز وجل عن الروح ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء: 85] فالروح هي من الأسرار الإلهية التي لم ولن يطلع على علمها بشر، والوصول إلى تعريف لها سواء في الماضي أو الحاضر نتيجة اجتهادات بشرية لا يعني صحتها، فكم من النظريات أُثبت خطأها فيما بعد – فعلي سبيل المثال تحليل القدماء لنظرية الرؤية، فقد توصلوا بتفكيرهم المحدود أن العين تُصدر ضوءاً على الأشياء فتوضحها للرؤية، وقد اثبت العلم الحديث أن سقوط الضوء على الأشياء هو الذي يعكس صورتها فتراها العين. انطلاقاً من أن الإنسان لا يري في الظلام، مما يجعل من النظرية الأولي مجرد ترهات لا قيمة لها، بعد أن وجدت من يؤمن بها، ويصدقها في حينها.

وجدير بالذكر أنه في أواخر القرن التاسع عشر، عندما أقر علم النفس أول مرة بأنه فرع مستقل من فروع المعرفة، اهتم الباحثون النفسانيون اهتماماً كلياً تقريباً بعلم النفس البحت، ولاسيما سيكولوجية المعرفة، وقد طرأ اليوم تحول في التأكيد والتعميق. إذ احتل علم النفس التطبيقي مكانة عظيمة، فحدث هناك تطور ملحوظ في فروع أخرى إلى جانب المعرفة، وخاصة في القياسات العقلية وفي علم النفس الاجتماعي وسيكولوجية الدوافع. وساير هذا التحول في التأكيد تطور سريع في الأساليب. (نايت؛ نايت، 1965: ص9)

أهمية علم النفس:

لقد عاش العالم في تسابق بين الدول الكبرى الرأسمالية منها والشيوعية – لغزو العالم نفسياً فيما يسمي بالحرب النفسية. وقد ظهرت أهمية هذا السلاح في الحرب العالمية الأولى، إذ استغله الحلفاء إلى أقصى حد ضد ألمانيا مما أدي إلى اعتقاد "هتلر" وحزبه النازي أن ألمانيا لم تهزم عسكرياً، بل هُزِمَت اقتصادياً وبالحرب النفسية. فقام بتنظيم أجهزة الدعاية لديه، ووضعها تحت إشراف "جوبلز" الذي أصبح فيما بعد من كبار المشرعين في هذا الميدان، فلما جاءت الحرب العالمية الثانية أولت الدول المحاربة هذا السلاح عنايتها. وخاض علماء النفس الحرب بسلاحهم جنباً إلى جنب مع القوات المحاربة وانتهت الحرب العسكرية، واستمرت الحرب النفسية، والتي تسمي بأسماء عدة منها: الحرب الباردة، أو حرب العقائد، أو حرب اكتساب الرأي العام، أو الدعاية، وإن كان علماء النفس يفضلون تسميتها بالإعلام لأنها دعاية تقوم على أسس علمية نفسية.

ويرون أن الدعاية الناجحة: هي التي تقوم على حقائق وتهدف إلى التعريف والإعلام ويكون عمادها الصدق. وهي بذلك ضرورية في الحرب وفي السلم على السواء. (جلال، 1966: ص ص 21، 22)

وإن كان البعض يرى عكس ذلك، فهناك من ينظر إلى الدعاية على أنها قائمة

على الأكاذيب، وإضفاء الأهمية على أمور ليست بتلك الأهمية المنسوبة إليها، والتقليل من أهمية أمور أخرى تستحق بلورتها في صورة تليق بقيمتها، بعكس الإعلام الذي يعتمد على الحقائق المجردة، والأخبار الصحيحة، والوضوح، والشفافية.

ويبدو أن الخلط بين الدعاية، وبين الإعلام، يرجع إلى أتفاق الهدف بينهما، وهو التأثير في الرأي العام، والسير به إلى حيث نريد من أهداف.

وجدير بالذكر أن الحرب النفسية مازالت موجودة حتى الآن تؤدي دورها وبصورة أعم وأشمل من الماضي نتيجة التطور الإعلامي الرهيب، وتحول العالم إلى قرية كونية صغيرة، تلك الحرب التي يشنها الغرب بنجاح خاصة الولايات المتحدة الأمريكية التي أخذت من حقيقة قوتها العسكرية، وثرواتها مادة يوهمون بها العالم أنهم باستطاعتهم الوصول إلى أي مكان تحت أي ذريعة ومسمي، وأنها فوق الأعراف الدولية والمواثيق والاتفاقيات وفوق الهيئات الدولية أيضاً، كقوة قادرة ومسيطرة على العالم، نفس الحرب استخدمها الكيان الصهيوني ومازال يستخدمها لإرهاب الجوار، أو لاستنزاف الدول بدعوى المساعدات أو بدعوى التعويضات، أيضاً إيهام العالم أنه وسط بحر من الأعداء وأن له الحق في حماية نفسه بكافة الأسلحة وعلى رأسها أسلحة الدمار الشامل، ورغم الرأى القائل بأن الدعاية الناجحة هي التي تقوم على حقائق، إلا أن الكيان الصهيوني استطاع أن يحقق النجاح لحربه النفسية دون وجود حقائق، بل مجرد أمور مزيفة نسجتها خيالات مريضة استطاعت وللأسف أن تسيطر على العالم، وتفعل ما تشاء، ويرجع ذلك إلى استخدامها وسائل الإعلام المؤثرة عالمياً، والتي تسيطر عليها لبث دعايتها المغرضة، وكسب تعاطف الدول، ولا يمكن أن ننكر أن من أسباب نجاح الكيان الصهيوني في دعايته، استعداد الدول المتعاطفة معه للتصديق انطلاقاً من سياستها التي هدفت من البداية إلى زرع هذا الكيان في المنطقة. أيضاً نفس الأمر قامت به كوريا الشمالية في مواجهتها للتهديدات الأمريكية والتي وصلت إلى حد التهديد بالحرب، فقد استطاعت أن تأخذ من حقيقة تسليحها أداة إعلامية رادعة تثبت للعالم من خلالها

خاصة الولايات المتحدة أنها قادرة على صد أي هجوم حتى ولو كان لأقوي دولة في العالم وهناك من الأمثلة الكثير.

كما أن هذه الوسيلة تستغلها بعض الدول في كسب الرأي العام داخل الدول المعادية، وتحوله إلى صفها أو تقلل من حدة عداوته تجاهها على الأقل، وأن تبقي على صداقة الأصدقاء، وأن تكسب المحايدين، أو تبقيهم على حيادهم. وكما توجه الدعاية إلى الخارج فهي توجه إلى الداخل أيضاً – خاصة في الدول ذات الحكم الشمولي – إذ يهم الحكومات تماسك الجبهة الداخلية – جبهة الشعب – وتكتيل قواه لتحقيق المبادئ التي يؤمن بها ويسعى إلى نشرها.

أيضاً من الأهميات: أن تقدم الأمم يقاس بطاقتها الإنتاجية، وبمدي توفر الخدمات فيها للأفراد، وعدالة توزيع هذه الخدمات، مع استمرار الفائض لديها من الإنتاج ورأس المال، وهذه هي المبادئ التي تنص عليها الاشتراكية العربية، والإنتاج وإن كانت تقوم به الآلة غير أن سيد هذه الآلة هو الإنسان، وهنا يأتي دور علم النفس. فقد كان الاعتقاد السائد قديماً أن المهندس هو المسئول الوحيد عن تصميم الآلة وصنعها، غير أن المهندس وإن كانت له دراية بالآلة غير أن درايته بالإنسان الذي يديرها محدودة، فكان لابد من اشتراك عالم النفس معه في تصميمها حتى يسهل على العامل إدارتها بأقل جهد دون أن يكون هناك أي خطر على حياته، ويسمي دور عالم النفس في هذه الناحية في علم النفس "بالهندسة البشرية".

أيضاً لما كان الأفراد يختلفون فيما بينهم في قدراتهم واستعداداتهم وميولهم فهم بذلك يختلفون فيما يصلحون له من أعمال. فمن تؤهله قدراته واستعداداته وميوله لأن يكون طبيباً، قد لا تؤهله لأن يكون مهندساً أو محامياً أو معلماً. إذ تتطلب كل مهنة وكل حرفة قدرات واستعدادات وميول معينة، ويحتم تنوع المهن واختلافها فيما تتطلبه من قدرات واستعدادات وميول، كذا اختلاف الأفراد في هذه القدرات والاستعدادات والميول، ضرورة التوفيق بين الأفراد والمهن لوضع كل فرد في المكان المناسب له، مما يؤدي إلى تكيف الفرد في مهنته وإقباله عليها

وإنتاجه فيها، ومن ثم التقدم في كافة المجالات، ويقوم علماء النفس بعملية التوفيق بين الأفراد والمهن فيما هو معروف "بالتوجيه المهني".

وهذا ما يحتاج إليه الوطن العربي في ظل نظام تعليمي يقوم على الحفظ بغية الحصول على أعلى الدرجات للحصول على مقعد داخل كليات القمة والتي تتحدد حسب الحيثية الاجتماعية لخريجيها في مجتمع معين، وفى وقت معين، مما جعلنا في مؤخرة قطار التقدم والذي تفصل بين عربته الأولى وبين الأخيرة مئات السنين من الابتكار والتجديد والتقدم العلمي والتكنولوجي، فلا بالأطباء وحدهم تتقدم الشعوب، ولا بالحرفيين وحدهم تتقدم الدول. بل بدرجة تكيف كلٍ منا مع مهنته، فحب المهنة من أول وأهم أسباب النجاح والابتكار، ولتحقيق ذلك لابد وأن تتغير السياسة التعليمية إلى تشجيع ميول النشء واهتماماتهم، أيضاً ضرورة تغيير نظرة المجتمع لبعض المهن عن طريق رجال الدين، والإعلام، والأسرة العربية نفسها، انطلاقاً من مبدأ المساواة والذي يقره الإسلام، حيث لا فضل إلا بالتقوى، وأن حكمة المولى عز وجل في الاختلاف بين الناس، وترتيب طبقاتهم ليكون الجميع في خدمة الجميع في حالة رائعة من حالات التكامل الإنساني.

ومما لا شك فيه أن التقدم العلمي يؤدي إلى زيادة المعرفة المتصلة بالمهن المختلفة، والتي أصبحت ضرورية للنجاح فيها. لذا يتضمن التوجيه المهني عملية التأهيل المهني، وخبراء التأهيل هم علماء النفس.

أيضا لعلم النفس وظيفته في القوات المسلحة، إذ تتنوع الأعمال في القوات المسلحة مثلما تتنوع في الحياة والمصانع والمؤسسات، وتتطلب وحدات الجيش المختلفة قدرات واستعدادات مختلفة. فما يتطلبه سلاح المشاة يختلف عما يتطلبه سلاح المدفعية، أو سلاح الطيران، أو البحرية، بل وتنوع الأعمال والقيادات في السلاح الواحد، وكما يتم التوفيق بين الأفراد والمهن والحرف في الحياة العامة وفي المصانع، يتم نفس الشيء في الجيش، إذ يقوم علماء النفس بالتعاون مع الأطباء والخبراء العسكريين بفرز المجندين وتوزيعهم على الوحدات المختلفة تبعاً لما تتطلبه

هذه الوحدات من قدرات واستعدادات، كما يسهمون في تخطيط أحسن الوسائل لتدريب الجنود، وتصميم الآلات الحربية، ومعداتها طبقاً لمبادئ الهندسة البشرية التي سبق أن أشرنا إليها.

كما يسهمون في علاج المشاكل النفسية والاجتماعية للأفراد. كما يقوم علماء النفس بتشخيص الأمراض النفسية والعقلية وعلاجها والوقاية منها. ويجدر بنا أن نفرق هنا بين عالِم النفس، وأطباء الأمراض العقلية، والمحللين النفسيين. إذ كثيراً ما يخلط العامة والخاصة بينهم. فطبيب الأمراض العقلية في الأصل طبيب تخصص في الأمراض العقلية. فميدانه هو الطب. أما عالم النفس فوظيفته مساعدة هذا الطبيب في التشخيص بأدواته النفسية الخاصة التي ينفرد وحده ببحث استخدامها كما يقوم بعلاج المشاكل التي يكون الأساس فيها نفسي غير جسماني. أما المحلل النفسي.. إما طبيب أو عالم نفس يقوم بعلاج مرضاه بالتحليل النفسي، والتحليل طريقة خاصة من طرق العلاج.

بالإضافة إلى الجريمة وهى ميدان آخر من ميادين عمل عالم النفس للوقاية منها، وعلاج المجرم وتوجيهه، ولعل ميدان الأحداث المنحرفين من الميادين الهامة التي تستغل فيها خبرة الأخصائي النفسي، كذلك تأهيل ضعاف العقول، وذوي العاهات.

ويمكننا أن نجمل أهمية علم النفس في الآتي:

1- الدعاية.
2- التوجيه المهني.
3- الصناعة.
4- التربية.
5- القوات المسلحة.
6- العلاج النفسي.
7- الصحة العقلية.
8- الجريمة.
9- البحث العلمي في كل الميادين. جلال (1966: ص ص 23، 26)

أهداف علم النفس:

يبقي لنا بعد كل ما سبق أن نتحدث عن أهداف علم النفس، فهو شأنه شأن غيره من العلوم يتفق معها في الأهداف الأساسية للعلم. عندما يتناول ظواهره بالدراسة والبحث، وهذه الأهداف.. هي:

1- الفهم والتفسير.
2- الضبط والتحكم.
3- التنبؤ.

أولا: الفهم والتفسير

الإنسان منذ بدأ تاريخه حتى الآن يجاهد ليعرف حقيقة ما يحيط به من ظواهر محاولاً فهمها وتفسيرها وعندما لم يكن يسعفه علمه أو منهجه في الوصول إلى الفهم السليم، والتفسير الصائب كان يضطر إلى التفكير الغيبي يفسر به ويعلل حدوث الظواهر معتقداً في سلامته وصدقه. وظواهر الخير ترجع إلى رضاء الآلهة عن البشر، وظواهر الكوارث والمصائب ترجع إلى غضب الآلهة عليهم وانتقامها منهم. واستعادة هذا المريض لصحته يرجع إلى التميمة المباركة من عمل هذا العراف الطيب، وهذا المرض الذي ذهب بعقل هذا المهووس فاضطرب له سلوكه واعتل تفكيره، إنما يرجع إلى شيطان نجس قد تسلل إلى جسمه فسكنه، وليس بخافٍ أننا لازلنا حتى اليوم نجد بقايا هذا الفهم والتفسير في مختلف المجتمعات خاصة المنغلقة منها. ذلك أن الإنسان لا يطيق الغموض ويفزع من المجهول فيسعى إلى استجلائه، حتى إن بعض علماء النفس يعد حب الاستطلاع والرغبة في المعرفة غريزة في البشر بحكم تكوينهم وطبيعتهم.

وبالمثل فإننا نجد أن هدف الفهم والتفسير والمعرفة من أول الأهداف الأساسية التي يسعى العالم لتحقيقها من بحثه في الظواهر التي تقع في مجال اختصاصه، وعلم

النفس بالمثل أيضاً يريد أن يعرف ويفهم ويفسر ويكتشف أسباب حدوث الظاهرة النفسية كالتفوق الدراسي أو التوافق المهني أو المرض الهستيري.

ثانيا: الضبط والتحكم

من الأقوال المأثورة أنك إذا عرفت استطعت، بمعني أن الإنسان إذا نجح في فهم أسباب حدوث الظاهرة، ومعرفة عواملها أستطاع أن يؤثر في مسار الظاهرة نفسها، ويتحكم في حدوثها. فيمكنه أن يهيئ لها أسباب حدوثها فتحدث، كما يمكنه أن يغير في هذا العامل أو ينقص من هذا أو يزيد من ذاك، أو يلغي أو يضيف، فتتأثر تبعاً لذلك الظاهرة وتتحور، بل إنها تصير وفق ما نريد أو تختفي وقتما نشاء.

ثالثا: التنبؤ

هو إمكانية توقع حدوث الظاهرة قبل أن تقع. وتنبني إمكانية تحقيق هذا الهدف - كسابقه أيضاً - على استقامة فهم الظاهرة وسلامة تفسيرها ودقة معرفتها. وهذا التنبؤ يعتبر هدفاً تطبيقياً نفعياً بمثل ما يعتبر الهدف الأساسي الثاني والخاص بالضبط والتحكم.

ذلك أننا نتوقع حدوث الظاهرة متى أدركنا توافر مقوماتها وتهيؤ عواملها مما يمكننا عند ذلك من الاستعداد لملاقاة الظاهرة بما نستطيع معه جني أكبر فوائدها وتحاشي معظم أضرارها، ولذلك فعندما تسبق الرغبة في التنبؤ بالظاهرة فهمها وتفسيرها يصبح من الضروري لتحقيق التنبؤ أن نبدأ بتحقيق الفهم والتفسير لهذه الظاهرة. طه (1979).

الإسلام وعلم النفس:

من الواجب علينا أن نؤكد أن الإسلام يحث على العلم، لقوة الإسلام من جهة: فهو لا يخشى الاكتشافات العلمية الحقيقية لأنه دين الحق، ومن جهة أخرى: تأتي الاكتشافات المثبتة كأدلة عقلية تضاف إلى الكثير والكثير من الأدلة والبراهين التي تؤكد أن الدين الإسلامي حق من عند الله، وأن ما جاء به الرسول ﷺ حق، وحسبنا دليلاً ما أثبته علم النفس والاجتماع من أن النفس السوية هي نفس قادرة على الحياة، يتسع وعيها بالقدر الذي يسمح بالتفرقة بين القبح والجمال، نفس قادرة غير عاجزة عن أداء واجباتها.

فقد حرر الإسلام الفكر، وأطلق العقل في رحاب الكون الواسع ليرى ويتدبر، حراً فيما يؤمن به، ولم يكن المسلمون الأوائل مجرد قنطرة عبرت عليها الحضارات القديمة إلى عصر العلم، بل نقلوا ذلك التراث مشروحاً ومعلقاً عليه بما يجنبه العثرات ويصحح أخطاءه، ثم أضافوا إليه الكثير من الابتكارات في شتي المجالات وعلى الأخص: علوم الرياضة، والفلك، والفلسفة التي طوروها داخل إطار الفكر الإسلامي، وذلك عكس ما حدث في أوروبا – خلال العصور الوسطي – وفيها وضع رجال الدين فلسفة أفلاطون وأرسطو وكذلك المعتقدات الكنائسية فوق الشبهات والنقاش. (الفندى، 1982: ص ص 17، 18)

وهنا نود أن ندرك "وضع النفس في القرآن الكريم وعلم النفس"، إن تعريف القرآن للنفس وإشاراته إليها يتسم بالنظرة الشمولية المتكاملة؛ والتي ندركها في التنوع والتفريعات والصياغة التي بلغت حد الإعجاب والإعجاز.

والنفس الإنسانية هي ذلك الكل المركب من الجسد والروح، والذي نطلق عليه أحياناً: اسم "الذات" Self أو "الأنا"، EGO بلغة علم النفس. والنفس بهذا المعني تحمل سمات كل من الجسم والروح، لأن صفات الجسم وخصائصه الأساسية تشكل جزءاً من سلوك الإنسان الفرد.. إن صفات الطول والقصر، السواد والبياض،

والسرعة والبطء، والنحافة والسمنة، والبلادة والنشاط، كل هذه الصفات الأساسية للجسم البشري، تجعلنا نطلق في كثير من الأحيان أن فلاناً هذا أعوج أو أرعن أو مندفع، أو أنه كسول أو لطيف الطبع أو ماكر خبيث.

بينما إذا أردنا أن نعرف صفات الروح.. وقفنا عاجزين أمام هذا المفهوم، ويعزي ذلك إلى قول ربنا سبحانه وتعالي في سورة الإسراء: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

إن الروح سر من أسرار الخالق جل وعلا أودعها مخلوقاته.. لأنها مصدر الخلق وأساس الحياة والوجود

ومن ثم ندرك تماماً أن النفس وهي مجموع سمات الجسد والروح، تختلف كلية عن الجسد والروح لأن صفات الكل شيء، وصفات الأجزاء المكون منه هذا الكل شيء آخر، فضلاً عن أن الكل (كوحدة) غير مجموع عناصره وأجزائه.

وهكذا ينظر القرآن الكريم إلى النفس البشرية نظرة "كاملة" شاملة ومتكاملة، في الوقت الذي نري فيه أن أقسام الجهاز النفسي كما يراها علماء النفس المحدثون تتكون من:

أولاً- اللا شعور: وهو ذلك الجزء الذي يشمل الدوافع والرغبات الجنسية، كما أنه يشمل جانبين: أولهما "الهو"، وثانيهما: الاستجابات المكبوته.

ثانياً- الشعور: وهو كل ما يمكننا تذكره من أفكار وأحداث ووقائع وهو يمثل الذات المدركة أو الأنا.

ثالثاً- الأنا العليا أو الأعلى أو الضمير: ويظهر أثناء مرحلة الطفولة وبالذات عندما يبدأ الطفل في تعليم ضبط إخراجه.

.. ولسنا نري في هذا الصدد أي خلاف أو تباين بين ما ينادي به علماء النفس المحدثون وما يشير إليه القرآن العظيم.. ألم يقصد باللا شعور "النفس الأمارة بالسوء".. أليس المقصود بمنطقة الشعور "النفس المطمئنة".. كما أن الأنا العليا ما

هي إلا النفس اللوامة. ليس هناك تعارض إذن بين القرآن وعلم النفس في نظرة كل منهما إلى النفس البشرية، وأن كان الأول ذو نظرة فاحصة دقيقة تمتاز بالعمومية والشمول عن الثاني: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ق: 16].

إن مركباً يتكون من الجسد والروح هو الذي يكسب الحياة حيوية ونشاط وبهجة.. إن النفس البشرية هي صانعة الحضارات، وهي التي تعمل على تعمير الأرض، وإقامة الوجود الإنساني حتى أبد الآبدين. (الطويل، 1982)

وجدير بالذكر أن العلاقة بين القرآن الكريم وبين علم النفس ما هي إلا حلقة من حلقات العلاقات الوثيقة بين القرآن وبين العلوم المختلفة، ومع كل اكتشاف علمي جديد تتضح تلك العلاقات، وأن القرآن سبق العلوم جميعها تأكيداً على أنه منزل من عند الله عز وجل فآيات الله كثيرة جداً في الأرض.. وكلها تنطق بإعجاز القرآن.. يقول الله سبحانه وتعالي: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء: 56].

هذه الآية عن الكفار يوم القيامة.. والهدف منها أن الله تعالى يخبرنا أن العذاب سيستمر في الآخرة.. وكانوا يقولون: إن مراكز الإحساس توجد في المخ.. وأن الجلد ليس به مراكز إحساس.. كان هذا هو الحديث حتى فترة وجيزة.. أما أيام نزول القرآن فلم يكن أحد يعرف شيئاً عن ذلك على الإطلاق.. فيأتي الكتاب العزيز ويقول: "كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب". فكأن العذاب له صلة بالجلد، والإحساس بالعذاب يأتي من الجلد.. ثم يكتشف العلم أخيراً أن مراكز الإحساس بالألم موجودة فعلاً في الجلد.. وهي التي تحس بالعذاب.

ونأتي إلى القرآن فنجده ربما كان أول كتاب في العالم كله.. أخبر: أنه يوجد شيء أصغر من الذرة.. فيقول سبحانه وتعالي: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا

يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ (الزلزلة: 7-8)، لأن الذرة هي أدق ميزان في العالم، (وقد لفت القرآن النظر إليها)، ثم يأتي في آية أخرى ويقول عن الذرة: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس: 61]، إذن فهناك شيء أصغر من الذرة.. وهذا الشيء مقيد في كتاب عند الله ومكتوب. (الشعراوي، 1992: ص ص 40، 41)

مما سبق يتضح لنا أنه لا تعارض بين القرآن الكريم وعلم النفس، بل على العكس تماماً. فإن علم النفس وغيره من العلوم هي أدلة ضمن أدلة كونية كثيرة تؤكد على وجود الله عز وجل، وأن ما جاء به رسول الإنسانية (صلي الله عليه وسلم) هو من عند الله.. لا يرفضها إلا كل كافر.. جاهل متعصب. ثمة شيء آخر أن علم النفس من العلوم التي لها أثر على المجتمع، فالتحول الاجتماعي يتبع التحول النفسي وفى ذلك يقول المولى عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: 11].

ويري أن التحول النفسي مقدمة ضرورية للتغير الاجتماعي، فالإسلام نفسه دعوة إلى التغير النفسي من عادات المجتمع المادي أو الجاهلي.. إلى عادات المجتمع الإنساني، فهو دعوة إلى التحول من مظاهر اجتماعية معينة.. إلى مظاهر أخرى مقابلة لها تماماً، عن طريق التبصير بأخطار المظاهر الاجتماعية الأولى.

فإذا كان من عادات المجتمع المادي أو الجاهلي: الإمساك عن الإنفاق على صاحب الحاجة، ويتجلى ذلك فيما يذكره الله سبحانه عن الماديين: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يس: 47] فإن دعوة الإسلام تتجه إلى تغيير هذه العادة في نفوس المؤمنين بالله إلى أن يصبح الإنفاق على أصحاب الحاجة عادة بديلة في نفوسهم، بحيث يستطيعون الإنفاق عليهم عن محبة ورضاء نفس. كما يصوره القرآن كصفة

من صفات المؤمنين في قوله: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان: 8-9].

وقد جعل الإسلام الإنفاق في غير الواجبات المفروضة كالزكاة اختيارياً، ذلك الاختيار الذي يعد من الأدلة القوية على علم الله بخلقه، وبطبيعتهم الإنسانية، وبحبهم للتملك، ذلك الدافع الذي اعتبره بعض علماء النفس من الدوافع الفطرية داخل النفس البشرية، كما أننا نخرج من ذلك الاختيار بأكثر من حقيقة:

الأولى: أن الإنفاق في حقيقته امتثال لأمر الله، وتنفيذه واجب على كل مسلم مؤمن بالله وبأنه وحده الرزاق، وأن البخل فيما أتانا الله من مال، إنما هو في حقيقته ضعف إيمان، وصورة من صور التدين المغشوش الذي ينطوي على النفاق، وأن ما تقوله الألسنة قد يختلف عن ما في القلوب من إيمان ويقين بالله، وبكلام الرسول الكريم وما ورد عن النبي من أفعال وأقوال تحث على الإنفاق في أوجه الخير.

الثانية: حكمة التكافل بين المسلمين، وحق الفقراء في مال الأغنياء بالقدر الذي لا يؤدى بالأغنياء إلى الفقر فيزيد عدد الفقراء بدلا من مساعدتهم !!.

الثالثة: وحكمة هذا القدر تأخذنا إلى حقيقة علم المولى عز وجل بطبيعة الإنسان وبغرائزه ودوافع سلوكه السوي أو المتطرف، فهو خالقه ويعلم ما توسوس به نفسه.

مما يؤكد على أن الإسلام حينما طالب بالإنفاق الاختياري لم يكن يريد أن ينفق الناس كل ما في حوزتهم من أموال، بل ينفقون بالقدر الذي يحفظ لهم نعيم الدنيا ونعم المولى عز وجل فيها، وعلى الجانب الآخر يحفظ لهم نعيم الآخرة، فالإسلام لم يأتي بما يشقى الناس، بل من نعم المولى عز وجل أن أجره على ما نفعله من أعمال صالحة غير محدد، وغير معلوم بما يليق باسم الرحمن، فبرحمته يضاعف الله لمن يشاء، ويعطى الأجر في الدنيا أو في الآخرة، أو في الدارين معا حسب حاجة الإنسان لأجر المولى عز وجل، وكلها أمور غيبية لا يعلمها إلا العليم الخبير، تلك القضية التي تغيب حكمتها عن بعض ضعاف النفوس والإيمان، فتؤدى بهم إلى

عصيان أوامر الله وإلى الكفر بنعم الله غير المحسوسة، فالبعض للأسف يعتبر الإنفاق في سبيل الله بصوره المختلفة بمثابة إيداع في مصرف من المصارف التي ترد المال المودع كما هو بالإضافة إلى فوائده !، ذلك الفكر التخريفي، بل والتخريبي لما لآثاره التدميرية على إيمان الفرد ومن ثم أفعاله، فإن أُعطوا رضوا وأنفقوا، وان لم يعطوا نقموا وبخلوا وامتنعوا عن الإنفاق، لا يعلمون ما ادخره لهم المولى عز وجل من أجر هم في أمس الحاجة إليه يوم القيامة، وهذا الفكر المريض ينطوي على حقائق عديدة، ومنها:

- عدم الإيمان بعدل الله وبكتابه وبنبيه حتى لو ادعى صاحب الفكر عكس ذلك، فلا يمكن أن يصدر هذا الفكر المريض عن مؤمن بأن الله حق وانه ليس بظلامٍ للعبيد، وبآيات الله العديدة التي تبشره بالأجر.
- أن الإنسان من طبيعته تعجل الأمور.
- عدم إدراك المرء للنعم التي انعم الله بها عليه، فمن مساوئ الإنسان أنه يعتبر كل نعمة ينعم بها، إنما في حق مكتسب له، ذلك الاعتبار الذي يؤدى به في النهاية، إلى عدم شكر الله على نعمه ـ التي يعتبرها من الأمور العادية وكأنها حق له على خالقه!

ومن ناحية أخرى النظر إلى ما يفتقده من نعم، وان من حقه أن ينالها بما يدفعه من صدقة، مما يذكرنا بصكوك الغفران التي كانت منتشرة في أوروبا في العصور الوسطى، فترة الظلام والجهل، تلك الصكوك التي يمكن للفرد فيها أن يشترى المغفرة بالمال! ذلك الفكر الساذج الذي كان ومازال بيننا ينعم بعقول الجهلاء، ويسعى فيها مدمراً ما بقى فيها من فكر قد يعيد المرء إلى صوابه، وإلى الوعي بحكمة المولى عز وجل في أوامره والامتثال لها، وإلى الإيمان والتدين الحقيقي المنزه عن الغش والنفاق؛ لذلك فإن التغيير النفسي الذي يعتبر ضرورة تسبق التغيير الاجتماعي لا يرتبط في نظر الإسلام بإلزام أو إكراه عن طريق السلطة الخارجية. فالحياة النفسية يؤثر فيها الإقناع والمنطق.. ولكن الإلزام والإكراه قد

يسبب عناداً مضاداً، فإن لم يبد هذا العناد فلأنه قد غلف بالنفاق والتهرب من الالتزام.

وفيما يلي الخطوات التي يتخذها الإسلام في التغيير النفسي:

أولاً: توضيح الأخطار التي تترتب على العادات والتقاليد التي تسود المجتمع المادي.

ثانياً: بعد فترة من التوضيح: النهي عنها.

ثالثاً: الترغيب في العادات الأخرى البديلة التي تصور المستوى الإنساني.

رابعاً: بعد فترة من الترغيب: الأمر بإتباع هذه العادات المرغوبة وهنا يتم التحول، إذا كان الإيمان صادقاً، كما تذكر سورة الحديد في قول الله تعالي: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الحديد: 7].

وفي قوله تعالي في السورة نفسها أيضاً: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد: 10].

فمع كون القرآن يشير في الآية الأولي إلى أن المال مستخلف عليه من الله، والمالك الحقيقي له هو الله تعالي، ويشير في الآية الثانية صراحة إلى أن الله هو الذي يؤول إليه كل ما في الدنيا: يعد بالأجر الكبير والجزاء الأوفى لمن أنفق في سبيل الله وسد حاجة لمحتاج معه في أمته.

وكان يكفي في الإقناع بالإنفاق أن يذكر أن المالكين للمال مفوضون فيه فقط .. ويجب أن يسيروا إذن في إنمائه، وفي صرفه طبقاً لتعاليم المالك الحقيقي لماله، ولكن ذكر الأجر الكبير والجزاء الأوفى للمنفق هو حث له وترغيب في أن ينفق بحريته ومشيئته. فيحفظ عليه إنسانيته التي يلتزم عن طريقها، ولا يلزم بأمر خارج عنها. وهكذا؛ فالإقناع هو العامل في التحول النفسي والاجتماعي، وليس الإكراه والإلزام. (البهي، 1986)